د . زكي نجيب محمود

الحضارة وقضية التقدم والتخلف

لطالما تعرض هذا الماثل بين ايديكم لهجمات النافدين ، طوال الخمسة والعشرين عاما الماضية : لماذا ؟ لانه ما فتيء خلال تلك الفترة ينادي بكل ما في ارادته من اصرار ، وبكل ما لقلمه من صرير ، ما فتيء ينادي بان نلجم شهوة الحديث فينا بشكائم الدقة والتحديد ، لعله يتاح للمتكلم والسامع ، او للكاتب والقارىء ، ان ينتهي بهما الحديث او الكتابة الى اتفاق على رأي واحد ، فيسلكونه في تيار الحياة الجارية عملا وسلوكا . ذلك لانه مما يلاحظ حتى للعين العابرة، ان احاديثنا وكتاباتنا كثيرا ما تتخبط في ابحر من ظلمات المعاني الغامضة ، كاننا جماعة من الصم ، يتحدث بعضنا الى بعض دون ان يستمع احد الى احد .

نعم ، ما فتيء هذا الماثل بين ايديكم طوال هذه الاعوام يتعرض لهجمات النافدين ، لانه رفع الصوت ، وما يزال يرفعه في عصبية المخلص لدعوته ، بأن نراعي ـ عند الحديث او الكتابة ـ دقة التحديد في ضبط المعاني التي نجريها على الالسنة والاقلام ، ما دام الموضوع المطروح يتسم بجدية العلم ، ويمس حياتنا في اسسها واركانها . اذن ففيم كانت هجمات النقد اذا كان هذا هو هدف الدعوة ولبها ؟ والجواب هو ان علتها تكمن في رغبتنا الجامحة نحو ان تنساب من افواهنا واقلامنا خيوط اللفظ ، لا نكاد نطلب منها الا حلاوة جرسها في الاسماع . اما من اراد ان يقف بنا عند هذه اللفظة ، او عند تلك العبارة ، سائلا ومدققا في المعنى المقصود ، فجزاؤه عندنا هو الاهمال ، وانه لمجدود لو اكتفى منا باهماله ، دون ان نكيل له مع الاهمال صاعا من الشتائم او صاعين .

فاذا كانت الدعوة الى الدقة في تحديد المعاني هي اهم الهموم التي حملها هذا الماثل بين ايديكم طوال ربع قرن مضى ، افلا يكون من اوجب واجباته على نفسه ان يتوخى هو مثل هذه الدقة التي يدعو الناس اليها ؟ وموضوع حديثنا هذا هو عن « الحضارة » لنرى بعد ذلك موقفنا من حضارة عصرنا ، اين يكون على درجات السلم، صعودا او هبوطا ، فحتم علينا ـ اذن ـ ان نحدد معنى الحضارة بصفة عامة وشاملة لنستطيع بعدئذ ان نضيق دائرة الحديث لتنحصر في حضارة العصر وما يميزها دون سائر الحضارات التي شهدتها العصور السالفة. فاذا استطعنا ذلك في دقة ووضوح ، كان الحكم على موقف الامة العربية في مرحلتها الراهنة امرا ميسرا لا عسر فيه .

ولكننا ما ان نهم بمثل هذا التحديد لمعنى « الحضارة » حتى نغوص في بحر متلاطم الموج ، لكثرة ما يعترضنا من آراء تختلف الى حد التناقض بين رأي ورأي . ذلك فضلا عما في تحديد امثال هذه المعاني العامة من صعوبة شديدة حتى ولو لم يكن اختلاف الرأي فيها بعيد المدى . فقد تكون الكلمة واضحة حين تجري في سياقها ، لكنك اذا عزلتها وحدها ، ووضعتها في مخبار التحليل والفحص الفيتها تقاوم وتروغ حتى ليستعصي عليك ان تمسك باطرافها ، فكانما اللفظة من هذه الالفاظ العامة كائن حي بالمعنى الحقيقي لهذه العبارة، تنصاع لفهمك اذا جعلتها جزءا من عبارة ، لكن اجعلها وحيدة وحاول ان تمسكها من جناحيها ، تتمرد عليك وتنتقم . كانت وهي مسوقة في عبارة ، وسيلة تتعاون مع غيرها على اداء معنى ، اما وقد جعلتها غاية في ذاتها ، تريد اختبارها هي ، فما اسرع ان تنقلب بين يديك لغزا غامضا ، وان تتخذ لنفسها اعماقا وابعادا ، لم تكن تتوقعها لها في بداية الطريق . وهذا هو الشاعر الفرنسي بول فاليري يحدثنا في ذلك فيشبه اللفظة وهي تؤدي معناها داخل عبارة تضمها مع غيرها ، بلوح من الخشب الرقيق ، وضع على خندق ليعبر عليه العابرون ، فلا بأس هناك اذا جرى عليه العابر خفيفا سريعا ، اما اذا وقف العابر عليه ليختبر قوته ، وراح يقفز بكل ثقله فان اللوح الخشبي لا يلبث ان ينكسر تحت قدميه .

لكننا برغم هذا النصح من بول فاليري ، لن نمر على كلمة « حضارة » خفافا سراعا ، وسنقفز عليها ونقفز ، حتى تتهشم لنرى اجزاءها جلية امام ابصارنا .

نريد تعريفا للحضارة ، يحدد لنا الخصيصة الواحدة ، او مجموعة الخصائص التي لا بد من ظهورها في كل حالة حضارية ، كما لا بد من اختفائها في كل حالة بدائية ، لانه اذا كانت الصفة او الصفات التي نقع عليها ، ماثلة في المتحضر وغير المتحضر على سواء ، اذن فهي ليست من التعريف الذي ننشده ، فمثلا اذا عن لنا ان نذكر الفن او الادب ـ ليكون تعريفا للحضارة ، وقعنا في الخطأ الذي احذر منه ، لانه ما دام الفن والادب ـ كائنا ما كان نوعها ـ موجودين في كل جماعة بشرية ، ايا ما كان حظها من الحضارة ، اذن فهما عنصران ضروريان ، لكنهما وحدهما لا يكفيان للتعريف . فالشرط الاساسي الذي لا بد من توافره في اي تعريف كامل ، هو ان نذكر الصفات الضرورية والكافية معا . فالبصر ضروري للانسان ، ولكنه لا يكفي لتعريفه ، واذن فلا يجوز ان نعرّف الانسان بانه الكائن المبصر ، وهكذا الحضارة لا يجوز تعريفها بانها الحياة التي تحتوي على فن وادب ، برغم ان الفن والادب عنصران ضروريان لا تخلو منهما حضارة .

فما هي الصفة ـ اذن ـ التي تجمع الى كونها ضرورية للحضارة ان تكون كذلك كافية لتعريفها ؟ وهي انما تكون كافية اذا امتنع ظهورها من كل حياة اخرى ، مما يتفق الناس على انها ليست في عداد الحضارات .

ولقد قلت :« مما يتفق عليه الناس » عن وعي وعن عمد ، لانه لا سبيل امامنا في تعريف الحضارة ، الا ان نبدأ بامثلة من عصور، اجمع العرف على انها فترات ذات حضارة رفيعة ، لكي نستخلص من هذه الامثلة الواقعية التي شهدها التاريخ والتي اقرها الخبراء في ميادين الثقافة ، صفتها المشتركة التي تظهر فيها جميعا ثم نستوثق من انها صفة لا تظهر في غيرها . وسوف اغض النظر هنا عن سؤال يثيره الباحثون ، وهو : هل الحضارة صفة تصف عصورا وجماعات ؟ او هي صفة تصف الافراد اولا ، ومن مجموعة الافراد المتحضرين تتكون حضارة معينة في عصر معين ؟ ساغض النظر عن هذا السؤال ، لسبب بسيط، هو ان خبراء الراي اقرب الى الاتفاق عندما ينصب الحكم على جماعة بأسرها ، او على عصر باكمله ، منهم الى الاتفاق عندما ينصب الحكم على هذا الفرد او ذاك .

فأي الجماعات ، او اي العصور يمكن اجماع الرأي عليها بانها نماذج للحياة المتحضرة حضارة رفيعة ؟ نستطيع الاكتفاء باربعة امثلة لا اظن احدا يجادل في رفعة حضارتها ، وهي : اثينا في عهد بركليز ، في القرن الخامس قبل الميلاد ، بغداد في عهد المامون في القرن التاسع، فلورنسة في القرن الخامس عشر ، باريس في عصر التنوير ابان القرن الثامن عشر .

فما هو القاسم المشترك بين هذه الحضارات الاربع ؟ انه يقينا ليس الاجهزة الآلية ، لان هذه الحضارات جميعا قد خلت منها ، اذ ان

اوانها لم يكن قد آن بعد ، مما يدل على ان الحضارة من حيث هي حضارة وكفى ، غير مقيدة بعصر معين ، تستطيع ان تقوم بغير الآلة كما تفهم في عصرنا ، كلا ولا كان القاسم المشترك بين الامثلة الاربعة التي اخترناها نماذج للحضارة في اكتمالها ، هو الفن او الادب او غيرهما من وسائل الحياة الوجدانية ، لان ما تجده من هذه العناصر في واحدة من تلك الحضارات قد لا تجده في الاخرى ، فضلا عن ان هذه العناصر جميعا قد تتوافر في شعوب وفي عصور لم نتفق على انها موسومة بحضارة تذكر . ففي قلب الادغال البدائية ربما رأيت من العقائد ومن الفنون نحتا وتصويرا وغناء ما يستحق التقدير في ذاته ، لكنه وحده لم يستطع ان يقيم حضارة يسجلها لها التاريخ ، لا ، ولا القاسم المشترك هو القدرة العسكرية ، والا وضعنا جنكيزخان وهولاكو في طليعة المتحضرين ، وعددنا قبائل التتار اكثر حضارة من الشعوب التي اجتاحتها تلك القبائل ، ولا النظم السياسية هي ذلك القاسم المشترك الذي نبحث عنه ، فقد كانت اثينا بركليز اولجاركية الحكم ، وكانت بغداد المأمون يحكمها خليفة ، وكانت السيطرة في فلورنسة لاسرة مديتشي ، وكانت تحكم باريس التنوير ملكية مطلقة .

ولكن القاسم المشترك الذي نراه في تلك النماذج الاربعة جميعا ، كما نراه في كل نموذج حضاري نختاره بعد ذلك ، ولا نراه في اي شعب او عصر منعوت بالبدائية والتخلف ، هو الاحتكام الى العقل في قبول ما يقبله الناس وفي رفض ما يرفضونه ، هذا الاحتكام الى مقاييس العقل وحده قد يتبدى في صور تختلف باختلاف العصور . فربما ظهر في مجال السياسة ، او في مجال الحرب ، او في مجال التشريع ، او في مجال العلوم الطبيعية . لكن هذه المجالات المختلفة ان هي الا تطبيقات مختلفة لمبدأ واحد ، هو ان يكون الحكم للمنطق العقلي وحده دون سواه . فهذه العقلانية في وجهة النظر هي التي تراها ماثلة في كل حضارة مهما اختلف لونها ، ولا تراها في اي جماعة بدائية مهما تعددت بعد ذلك صفاتها ، وليس هذا الذي نسميه علما ، الا عقلانية اتخذت لها منحى معينا من مناحيها الكثيرة ، فلربما اتجهت النظرة العقلية تلك ، نحو الافكار المجردة تنظمها وتنسقها في ترتيب هرمي يضع الاعم منها فوق الاخص ، كما حدث لليونان الاقدمين ، او ربما اتجهت نحو تحليل ما نزل به الوحي من تشريع ، كما حدث للعرب الاولين ، او اتجهت نحو ظواهر الطبيعة تستخرج قوانينها النظرية كما حدث لاوروبا في عصورها الحديثة ، او اتجهت نحو تجسيد تلك القوانين العلمية النظرية في اجهزة يديرها الانسان او تدير نفسها بنفسها كما يحدث لعصرنا القائم .

ـ ٣ ـ

عند هذا المنحنى من سياق الحديث ، ينبغي الوقوف لحظة قصيرة نتساءل فيها عن المعنى المحدد الواضح لكلمة « عقل » ، ما دمنا قد جعلنا الاحتكام الى العقل اساسا تقام عليه الحضارات حيثما قامت ، وبغيابه تنعدم الحضارة كلما انعدمت . فما هو هذا الذي نسميه «عقلا»؟ هو ببساطة شديدة ذلك النمط من انماط السلوك ، الذي يتبدى عندما نحاول رسم الطريق المؤدية الى هدف اردنا بلوغه . فليس الهدف المختار في ذاته « عقلا » لانه وليد الرغبة وحدها ، وليست النقطة التي ابدأ منها السير على الطريق « عقلا » لانها مبدأ مفروض ، اما « العقل » بمعناه الدقيق فهو ـ ببساطة شديدة كما قلت ـ رسم الخطوات الواصلة بين هذا المبدأ المفروض من جهة ، وذلك الهدف المطلوب من جهة اخرى ، فأفرض مثلا ان امة ارادت الحرية لابنائها ، اذن فهذه الحرية المنشودة هي الهدف المقصود ، والفاعلية العقلية في هذه الحالة هي في دقة التصور لما ينبغي ان يتخذ من وسائل لتحقيق ذلك الهدف ، وبمقدار ما يكون لتصور الوسيلة من دقة تمكن الناس من السير على هداها فلا ينحرف بهم الطريق ، يكون لدينا من قدرة عقلية في هذا المجال .

وننظر الآن الى اثينا بركليز ، وبغداد المأمون ، وفلورنسه آل مديتشي وباريس فولتير ، فلا نخطيء فيها جميعا هذه الصفة البارزة ، وهي ان قبول الاشياء ورفضها لم يكن قائما على عواطف الحب والكراهية ، والرضى والسخط ولا كان قائما على التقاليد الموروثة قياما اعمى ، بل كان القبول والرفض قائمين ـ على وجه التعميم الذي قد يشذ هنا او هناك ـ كانا قائمين على حكم العقل ومنطقه ، فكأنما كان الناس يسألون عند كل وقفة يقفونها من موضوع مطروح : هل الخطوة الفلانية اذا خطوناها ابلغتنا الى الاهداف ؟

وان عقلانية كهذه في النظر الى امور الحياة والثقافة معا ، لتستتبع صفات فرعية كثيرة ، تنتج عنها كما تنتج الثمرات من شجراتها . ومن اول هذه النتائج النابعة من ذلك المبدأ العقلاني ، ان تتخذ الاشياء نسبها الصحيحة بعضها من بعض ، فيبدو الكبير كبيرا كما هو ، والتافه تافها كما هو ، فقد تهتم الدولة المتحضرة بمسألة علمية تريد لها ان تستقر في الناس ، ولكنها تقضي عن توافه السلوك التي ربما اختارها هذا الرجل او ذاك طريقة لحياته الخاصة ، مع انك اذا نظرت الى جماعة غاب عنها العقل واستبدت بها النزوة في احكامها ، فقد تراها وهي تقيم الدنيا ثم لا تقعدها ، تجاه سلوك خاص اصطنعه خالد او زيد في حياته الخاصة ، بينما تعشي عينها عن رؤية تيار باسره في دنيا العلوم او الفنون .

ومن النتائج التي تترتب على الوقفة العاقلة كذلك ، ايثار الآجل على العاجل ، اذا كان في العاجل خير قليل قد يعقبه شر كثير ، او كان في الاجل خير كثير قد يسبقه شيء من الم التضحية .

ومن ابرز جوانب النظرة العقلانية ان ترد الظواهر الى اسبابها الطبيعية فلا يفسر المرض ـ مثلا ـ الا بالجراثيم التي احدثته ، ولا يعلل سقوط المطر الا بظروف المناخ ، وهكذا . ويترتب على هذا الربط السببي الصحيح ، ان نلتمس للاشياء اسبابها الطبيعية كذلك ، فاذا اردنا غلالا ، زرعنا لنحصدها ، واذا اردنا قتالا حملنا له السلاح بمران واقتدار .

النظرة العقلانية تنظر الى الواقع كما هو واقع ، لتحوره الى واقع جديد اذا ارادت ، دون ان تقيم بينها وبين الواقع حائلا تنسجه الاوهام ثم سرعان ما ننسى انه اوهام ، فاذا كان البدائي يخلق لنفسه الخرافة لينظر بمنظارها الى وقائع الدنيا ، فان المتحضر هو الذي يواجه تلك الوقائع كما تبدو لبصره وسمعه ، وبغير هذه الرؤية العارية المباشرة ، كان يتعذر عليه ان يلجم الطبيعة ليسير وقائعها حيث اراد لها ان تسير .

على ان ابرز ما تتميز به النظرة العقلية الى الكون ، هو حب الانسان للمعرفة حتى يلم بأسرار البيت الذي هو ساكنه ، فالعقلاني في نظرته ذو نهم نحو معرفة الحقائق والطبائع والعلل ، لا يصده عن ذلك شيء من التحريم الذي يفرضه البدائيون على انفسهم . من منا لا يذكر الحكايات التي كانت تحكي لنا ونحن صغار ، عن القصر ذي الغرف الكثيرة ، الذي يستباح الدخول في غرفه كلها الا غرفه واحدة محرمة ؟ ذلك هو الانسان اذا ترك لفطرته : ينتهيب نزع الستائر عن حقائق الاشياء ، وحتى اذا اجاز لنفسه ان ينزع بعضها ، اوجب على نفسه ان يترك بعضها الاخر مسدلا على كوامنه ، الا من جعل السيادة لعقله ، فذلك هو بروميثيوس ـ في اساطير اليونان ـ الذي نزع الشعلة من ايدي الآلهة ليضيء بها اركان الارض فلا يترك منها ركنا خافيا في عتمة الظلام ـ هكذا كانت اثينا حين امسكت بقبس النور لتتفحص الدنيا على ضيائه ، وهكذا كانت بغداد المأمون حين اخذت تعب معارف الاولين عبا لم يكد يفرق بين شراب وشراب ، فكل شراب من مورد العلم عندها سائغ ، وهكذا كان عصر النهضة وعصر التنوير في اوروبا .

— ٤ —

سلطان العقل — اذن — هو مدار القياس لدرجات الحضارة ، فقل لي كم عقلت امة في تدبيرها لامورها ، اقل لك كم صعدت في مدارج التحضر . واقول سلطان العقل ولا اقول مضاء الارادة ، فالاولوية في البناء الحضاري للعقل وفكره قبل ان تكون للارادة وفعلها ، نعم انه لا بد بعد التفكير العقلي من ارادة تنفذ ، لكنها عندئذ تكون ارادة ملجمة بتخطيط العقل . واما اذا بدانا الشوط بارادة تفعل ، فمن ذا الذي يضمن لنا الا يجيء فعلها تخبطا اهوج ، يتجه نحو اليسار اذا كان الاتجاه الى يمين هو الموصل الى الهدف ، اد يتجه بنا نحو اليمين عندما تقضي حكمة العقل ان نسير الى يسار ؟

العقل هو وحده الفيصل بين الحق والباطل ، وبه وحده يصبح الانسان سيد مصيره ، رغبات الانسان قد تدفعه الى سن القوانين واقامة التقاليد ، ثم قد تعود فتغريه بأن يتحلل مما قد سن او اقام ، واما ما بني على العقل فهو ثابت على الدهر لا يزول . ولذلك كان محالا علينا ان نحكي تاريخا للحضارة متسلسل الحلقات ، صاعد الخطوات ، الا اذا تعقبنا ما انتجه العقل ، لان نتاجه — دون اي نتاج آخر — هو الذي يظل يكمل نفسه عصرا بعد عصر ، يصلح من اخطاء نفسه، ويكشف الجديد ويوسع الرقعة قليلا قليلا ، حتى يبسط سلطانه على الارض والسماء ، واما الفن واما الادب وغيرهما من كائنات العالم الوجداني في الانسان ، فلا يأتي الجديد ليعلو درجة على القديم ، بل ربما حدث ان تفوق القديم على الجديد ، فليس من التناقض أن يكون هومر اعظم من شعراء القرن العشرين جميعا ، او ان يكون فنانو النهضة الاوروبية انوع فنا من رجال الفن في عصرنا ، فكيف اذن يتسلسل التاريخ في حركة صاعدة اذا لم يكن اللاحق اعلى درجة من السابق ؟ ان هذا التتابع الضروري لا يتحقق الا في ميدان العلوم ، التي هي رمز للعقل ونتاجه وبالتالي يكون الجانب العلمي هو وحده مدار القياس لدرجات التقدم والتخلف بين الافراد او الشعوب .

انني لارجو هنا الا يختلط الامر على احد ، فنحن لا نقول ان اي حضارة يمكنها الاستغناء عن عالم الشعور بكل ما يفرزه لنا من فنون وآداب وغيرهما ، ولكننا نقول — بكل قوة نستطيعها — ان عالم الشعور وما ينتجه ضروري لكل حضارة ، لكنه وحده لا يكفي ، والعقل دون سواه هو الجانب الضروري والكافي معا لتعريف الحضارة وقياس درجاتها .

يقول البرت شفايتزر عن الحضارة انها بذل الجهد من اجل التقدم . وكلمة « التقدم » هنا هي التي تهمنا في سياق حديثنا ، لانه اذا كان التقدم الى اعلى والى امام ، شرطا اساسيا للحضارة ، كان الجانب العقلي وحده من الانسان ، بما ينتجه من العلوم ، هو الذي يتقدم ، بمعنى ان تجيء الخطوة التالية من خطوات الطريق تقدما نحو الهدف الاخير ، بالنسبة للخطوة السابقة ، فالفيزياء او الكيمياء او البيولوجيا او علوم النفس والاقتصاد والاجتماع ، او غيرهما من فروع العلم ، ليست اليوم كما كانت بالامس ، واختلاف يومها عن امسها هو الاختلاف الذي يتحتم فيه ان تكون حصيلة الامس افقر من حصيلة اليوم ، واكثر منها تعرضا للخطأ . واما الآداب والفنون فكلمة « التقدم » بالنسبة اليها ليست بذات معنى ، فقد لا يستطيع شاعر من شعرائنا اليوم أن يجاري امرأ القيس ، وقد لا يستطيع احد من رواة الحكايات في يومنا ، ان يقترب من الذروة الادبية التي بلغتها الف ليلة وليلة . لا ، ان التقدم لا يكون الا في معرفتنا العلمية ، واما ما هو خاص بالوجدان ، فلا اظن ان الام العصرية الثكلى تبكي فقيدها على نحو اكمل من بكاء الامهات بالامس ، ولا ان يفنى عاشق اليوم في عشق حبيبته بأكثر مما فنى قيس في عشق ليلاه .

ومن فكرة التقدم هذه تنبثق لنا فروع ، لا بد لنا ان نعيها حق الوعي حتى لا يفلت منا جوهر الحضارة ولبها ، التقدم الحضاري يقتضي حتما الا نجعل الماضي مقياسا للحاضر ، وكيف نجعله المقياس اذا كان هذا الحاضر افضل منه بحكم فكرة التقدم نفسها ؟ النظر الى الماضي هو نظر الى الوراء ، على حين ان التقدم يقتضي ان نوجه النظر الى امام ، والانحصار في الماضي هو انحصار في نمط واحد من انماط الحضارة ، مع ان التقدم يحتم علينا الخروج من نمط اضيق نطاقا الى نمط اوسع افقا وارحب اطارا ، ان فكرة التقدم من حيث هي علامة نميز بها المسيرة الحضارية ، توجب علينا ان نجاوز واقعنا المحدود الى واقع اخر اكبر عظما واعلى ارتفاعا ، على ان نفهم «واقعنا» هذا بانه يشتمل على الماضي والحاضر معا ، فكلاهما واقع تم ، فلا بد ان ننظر النظرة التي ترجو ان يجيء المستقبل اكثر تحضرا — بمعنى اغزر علما — من الحاضر ومن الماضي على السواء .

— ٥ —

على ضوء هذا الذي اسلفناه ، نستدير الى عصرنا وحضارته ، انه ليس بدعا يشذ عن القاعدة التي سارت عليها سائر العصور ، فالحضارة فيه ما زالت قائمة على نفس الاساس الذي قامت عليه حضارات السالفين ، والاساس هو العقل . غير ان العقل — كما اسلفنا — يوجه فاعليته الى ميادين تختلف كيفا من عصر الى عصر ، وميدانه اليوم هو العلوم الطبيعية التي تتمثل في اجهزة ولا تقف عند كونها صياغات رياضية نظرية كما كانت الحال حتى عهد قريب . فلو كان الخليل بن احمد بعقله الجبار الذي خلق ترتيبا معجميا من عدم ، واستخلص عروض الشعر استخلاصا بلغ حدا مذهلا من كمال العقل الرياضي ودقته ، وقنن لنحو اللغة بعض قوانينه ، اقول لو كان الخليل هذا ولد في عصرنا ، لجاز ان يكون من اضخم علماء الفيزياء النووية حجما واوسعهم شهرة . فالفكر العقلي عنده ، ويبقى الميدان الذي يوجهه اليه . وكذلك لو كان بلانك اوبور او هيزنبرج رجلا من اهل البصرة في القرن الثامن لاخرج للناس معجما للغة ، وعروضا للشعر . مدار التقدم الحضاري — اعود فاكرر — هو الفاعلية العقلية دون سواها ، والذي يختلف في مراحل التاريخ هو ميدان النظر ، الذي تحدده ظروف العصر المعين .

ولقد حددت ظروف عصرنا هذا ان يكون الميدان هو الواقع الطبيعي وان يكون الهدف هو ايجاد الجهاز الذي يجسد الفكرة العلمية كائنة ما كانت . الاجهزة هي لغة العلم في عصرنا ، ولا عجب انه عصر الصناعة في ثورتها الثالثة : كانت الثورة الاولى حين حلت الالة محل الابدان ، سواء اكانت ابدان البشر ام ابدان الحيوان ، والثورة الثانية حين اصبحت الآلة تسير آلة سواها دون تدخل الانسان فيما يسيّر وما يسيّر ، والثورة الثالثة حين اتسع نطاق الآلة فلم يعد يقتصر على ما كانت الابدان تفعله ، بل امتد حتى شمل فاعليات العقول . ذلك هو عصر التكنولوجيا كما يسمونه ، لا فرق في هذا المجال بين مجتمع في الشرق او مجتمع في الغرب . فما دام المجتمع متقدما بمقياس العصر ، كان حتما ان يلقي زمامه الى عقله اولا ، وان يوجه فعل العقل نحو العلوم الطبيعية واجهزتها ثانيا . فان فوتت عليه قدراته الاقتصادية ان يسهم في هذا الميدان بنصيب ، كان لزاما ان يجعل منهاج تلك العلوم منهاجا له في اي ميدان يتاح له النظر فيه . فهنالك ميادين العلوم الاجتماعية : علم النفس وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع ، وهنالك مجالات الارتفاع بمستوى العيش : من حيث التغذية والسكن والتعليم والعلاج الطبي ووسائل الراحة وتأمين الافراد ضد كوارث الزمن ، هنالك كل هذه الميادين التي تتفاوت فيها الامم في عصرنا ارتفاعا وانخفاضا مما قد يوحي بان ايا منها يصلح ان يكون اداة لقياس التقدم والتخلف ، الا انها جميعا تلتقي في نقطة واحدة ، هي النظرة العقلية بمنهاج العلم الى كل اوجه الحياة .

ونسأل بعد هذا كله : اين تقف الامة العربية اليوم من المسيرة الحضارية ؟ واجيب بجواب يختلط فيه قليل من الاسى وكثير من الامل ، الاسى للهوة اللاعقلية العميقة التي لا نزال نتخبط في

ظلامها ، والامل في جيل جديد اراه على الطريق الى العقلانية العلمية وضيائها .

قد اكون على غير هدى فيما اقول ، ولكنني ـ على الاقل ـ اصدق القول مع نفسي ، حين اقرر ما اراه امامي واضحا ، وهو : اما ان نعيش عصرنا بكل ما يقتضيه من اخلاق ، واما ان نكون قادرين على تحريره ، بحيث نعيد صياغته على مثالنا ، اما ان نتمرد عليه ، ثم نعجز عن تحوير اي شيء فيه ، فذلك حكم على انفسنا بموت حضاري ، لا يعلم الا علام الغيوب متى تكون قيامته .

قل ما شئت عن عصرنا ، ولكنك مضطر الى ان تصفه بصفات ثلاث : فهو عصر علمي ، وهو عصر تقني ، وهو عصر مدار الاخلاق فيه على المنفعة . ولقد جمع مؤلف انجليزي معاصر هذه الصفات الثلاث في صيغة مركزة ، اذ قال انه عصر « تقني بنتامي » . اما التقنية فهي تتضمن ذلك الضرب من العلوم الذي يستهدف اختراع الاجهزة التي تجسد قوانينها ، ولا يترك هذه القوانين في صورتها المجردة واما انه عصر بنتامي ، فالاشارة هنا الى بنتام فيلسوف المذهب المنفعي ابان القرن الماضي .

معنى ذلك ان جواز المرور الذي يبيح لنا الدخول في عصرنا، هو ان نطور من قيمنا السائدة لكي تصبح قيما قائمة على علمنة ، وعلى تقنية ، وعلى منفعية في اسس التعامل السياسي والاقتصادي على اقل تقدير ، فاذا لم تعجبنا هذه الصفات لكونها غريبة على ثقافتنا الموروثة ، كنا علينا احد امرين : اما ان نلوي عنق العصر حتى يرى الدنيا بأعيننا ، واما ان ننسحب من العصر الى حيث شئنا ان يكون الاختفاء في ستر الظلام ، لكن المفارقة العجيبة ، هي اننا لا نخلق لدينا المعاصرة فكرا يثنيها عن طريقها . وفي الوقت نفسه ترانا نقف من ثقافة العصر موقفا يقبل اسماءها المجردة ويرفض مضموناتها ، بمعنى اننا على استعداد لقبول الاتجاه العلمي والتقني بل والاتجاه المنفعي في التعامل ، على شرط ان يقف هذا القبول عند حدود هذه الاسماء ، واما ما يندرج تحت هذه الاسماء من مضمونات فليس لدينا المعدات التي اعدت لهضمها ، مما احدث فينا ضربا عجيبا من الازدواجية الحضارية: فعلى سطح الامور الظاهرة ، نبدو وكأننا نعايش العصر في تصوراته ، فاذا نفذنا الى ما تحت السطح وجدنا انفسنا ما نزال نطوي في صدورنا قيم حضارة ذهبت مع تيار الزمن .

سل من شئت : هل تحب ان تتابع العصر في عقلانيته وتقنياته ؟ يجبك في استعلاء بأن العقلانية وما يترتب عليها ، هي جزء من ميراثنا الاصيل . لكن قل له انها في عصرنا تستتبع عدة امور : منها الا تلقي بزمامك الى العاطفة ايا كان نوعها ، ومنها ان يتولى العمل من يحسن اداءه ، لا من ينتمي الى اصحاب الجاه باواصر القربى ، ومنها ان يكون الارتكاز كله على الواقع المادي الصارم ، ومنها ان نصطنع في حياتنا نظرة علمانية تجعل محورها هنا على هذه الارض قبل ان يكون هناك في عالم آخر ... قل له هذا ، يأخذه الفزع ، لانه عندما اعلن انه من انصار النظرة العقلية ، لم يكن قد تخيل لنفسه انها نظرة تلد كل هذا النسل العجيب ، فهو عقلاني بالاسم ، لا بالمضمون والنتائج . انه يقبل من العصر تقنياته ، لانه يريد ـ كسائر عباد الله ـ ان ينعم بالسيارة والطيارة واجهزة التدفئة والتبريد ، لكنه اذا علم بأن ادخال هذه الآلات في حياتنا ، معناه ادخال عادات جديدة في تلك الحياة ، ومعناه احلال قيم جديدة محل قيم قديمة ، اخذه الهلع ، لانه في عمق نفسه لا يريد عن قيمه الموروثة بديلا .

وهكذا نقع في ازمة حضارية من طراز نادر ، لاننا في الحقيقة بمثابة من يحيا ثقافتين متعارضتين في وقت واحد : احداهما خارج النفس ، والاخرى مدسوسة في حناياها لا تريم ، فترى حضارة العصر في البيوت والشوارع والاسواق ، بينما تحس حضارة الماضي رابضة خلف الضلوع .

ونعود فنسال : اين تقف الامة العربية اليوم ، من حيث التقدم او التخلف على طريق الحضارة ؟

ان معايير القياس كثيرة ، اشرنا الى بعضها ، فهنالك المعيار الاقتصادي الذي يقيس التقدم بمتوسط الدخل ، وهنالك المعيار الثقافي الذي يقيسه بدرجة انتشار التعليم ، وهنالك المعيار الذي هو اشيعها قبولا ، وهو معيار يقيس تقدم الامة او تخلفها بدرجة العلمنة والتصنيع ، اي بدرجة تحولها الى الحياة الصناعية المستندة الى الاجهزة الآلية . وايا ما كان المعيار الذي تختاره ، فالشرط الضروري دائما هو ان تتغير طرائق العيش والتفكير بحيث تساير روح التقدم العصري .

لكن هذا التقدم لا يعني شيئا الا اذا عرفنا الى اي هدف نتقدم ، حتى يمكن قياس المسافة الفاصلة بين موقفنا الراهن وبين ذلك الهدف الذي نتقدم نحوه . بعبارة اخرى : ما هو النموذج الكامل الذي نضعه نصب اعيننا اثناء سيرنا ، لنكون على يقين بحقيقة موقفنا : هل هو اقتراب او ابتعاد عن ذلك النموذج ؟ وانه لعزيز على نفسي ان اقولها صريحة ، وانه كذلك لعزيز على نفوسكم ان تسمعوها ، لكنه حق لا منجاة لنا عن مواجهته ، وهو ان نموذج القياس انما هو الحياة العصرية كما تعاش اليوم في بعض اجزاء اوروبا وامريكا ، فقد شاء الله ان يكون هناك اليوم ينبوع الحضارة ، كما كان ينبوعها في ارضنا ذات يوم.

وقد نوجز اهم معالم تلك الحياة الاوروبية الامريكية التي هي حضارة العصر في بضع نقاط ، تساعدنا على قياس موقفنا بالنسبة الى الهدف : فمن تلك المعالم المميزة سرعة التغير ، وسرعة قبول الجديد ، فحياة الناس هناك توشك ان تتغير يوما بعد يوم ، وعليهم ان يلاحقوها، والملاحقة معناها الا يبهرنا ما قد فات ومات ، حتى لا نقف طويلا عند اطلال ، بل نوجه البصر دائما نحو غد ، فالقوم هناك يؤمنون ايمانا لا تحده حدود بالعلم وقدرته على النمو المطرد ، وبانه كلما اطرد نموه قلب حياة الانسان كما وكيفا .

فاذا اردنا قياس التقدم او التخلف ، فما علينا الا ان نقيس المسافة بين حياة الفرد العادي في مجتمعاتنا بحياة الفرد العادي في مجتمعاتهم : في حصيلة العلوم ، في دقة التخطيط ، في غزارة الانتاج، في مدى الحرية السياسية والاجتماعية ، وغير ذلك مما يتفرع عن اصل واحد ، يتلخص في قولنا عن حضارة العصر انها : علمية تقنية منفعية .

انني لعلى وعي بوجه الاعتراض هنا ، وهو : لماذا نفني ثقافتنا في ثقافة غيرنا ، بحيث نجعل منهم نموذجا لنا نحتذيه ؟ واظن ان خير جواب يزيل عن انفسنا القلق ، هو ان ينحصر تفردنا الثقافي في تلك الجوانب التي تميز الشعوب ، والتي هي في الوقت نفسه ليست مقياس التقدم الحضاري كما حددناه ، واعني بها جوانب العقيدة والفن وبعض تقاليد الحياة التي لا تتنافى مع الحركة العلمية بكل فروعها ، وبهذا نتيح لانفسنا ان نتحضر بحضارة العصر في اخص خصائصها ، كما نتيح لها في الوقت نفسه ان تحتفظ بما يميزها عما سواها ، وبهذا نتركها تساير العصر في نظراته العلمية الصارمة ، وتنطوي على ذاتها في ميادين الوجدان وطرائق التعبير عنه في العقائد والادب والفن .

ان الحديث عن الحضارة وقضية التقدم والتخلف للامة العربية، ما كان ليستثير نشاطنا الفكري ، لو ان بنا مواتا نزل بنا الى حفرة الحضيض ، وكذلك ما كان ليستثير نشاطنا لو اننا قد علونا في حضارة العصر الى ذروة الاوج ، ففي الحالة الاولى ينعدم الوعي ، فلا فكر ولا نشاط ، وفي الحالة الثانية تتحقق الطمانينة والرضى ، فلا قلق ولا تساؤل ، لكننا من مدارج الصعود في منزلة بين المنزلتين ، ولذلك كان لا بد لنا من مثل هذا النشاط الفكري ، نتحسس به الطريق ، حتى لا نضل عن الجادة المستقيمة لنبلغ ما نريد ونبتغي .